أحمد بن عبد الرحمن الموصلي الشهير بالمسلّم (ت١١٧٥هـ)

حياته وشعره

أ. م. د. أحمد حسين محمد الساداني
جامعة الموصل - كلية التربية للبنات

بسم الله الرحمن الرحيم

الملخَّص

يقدم البحث دراسة عن الشاعر أحمد بن عبد الرحمن الموصلي (ت١١٧٥هـ)، الذي جعل جميع شعره في خدمة الدين، منه المديح النبوي والزهد والتصوف، وسار فيه ضمن الحدود المعروفة للشرع الإسلامي، كذلك مدح بعض الاولياء والمشايخ من اهل الطرق الصوفية التي مال فيها الى الاستغاثة والشفاعة، وهو بذلك يمثل واقع العصر وظروفه.

امتاز شعره بسهولته وحسن تركيبه مع سلامته من الاخطاء اللغوية والنحوية، ونظم معظم اشعاره على البحور الطويلة، التي جاءت على القوافي السهلة الميسورة، وهو بذلك يستحق تحقيق ديوانه المخطوط ودراسته للدكتوراه مثلاً.

اسمه وحياته:

هو أحمد بن عبد الرحمن الموصلي القادري الرفاعي الشهير بالمسلم[١]، وقد ورد اسمه في شمامة العنبر[٢]، والروض النضر[٣]، ومنهل الأولياء[٤]، أحمد بن مسلّم وهو خطأ اشار اليه محقق الشمامة والمنهل والروض، ذلك أن لفظة "مسلّم" لقب للشاعر، جاء من تكرارها في خواتيم معظم أشعاره، قصيدة كانت أم مقطعة، لعله اراد منها أنه قد سلّم أمره الى الله سبحانه وتعالى.

تاريخ ميلاده مجهول، وسيرة حياته غير واضحة، فقد ذكر محمد أمين العمري (ت١٢٠٣هـ)، بقوله: "له نسب الى عمر بن الخطاب، ولم أقف على صحتها أو فسادها"[٥]،

وقد يكون محمد بن مصطفى الغلامي (ت١١٨٦هـ) خير من كتب عنه، فقال: "له معي من لطائف الصحبة ما يودّ عذار الحبيب ان يكون سطراً من كلامه مكتوباً، ولآلي عرق المحبوب أن ينتظم في سلك أحاديثنا جامداً مثقوباً، تبوّأ من قلبي أشرف دار ولابدع فإن جار الدار أولى بهذا الجار، جاري الذي هو في جسدي كالروح جاري زند أدبه الواري، إقتبست فكري جذوة من عنصره الواري"(٦).

هذا القول يدل على صحبة طويلة مع الشاعر، وان الغلامي العالم المعروف والاديب الشاعر أخذ من فكره وافاد من علمه.

وأشار الغلامي الى أن شاعرنا لم يبق في الموصل طوال حياته، بل تنقل شرقاً وغرباً، وغرضه في ذلك كسب العلم ورضا الله سبحانه وتعالى، يقول الغلامي: "لعبثْ في هذا الاديب في مبتدأ ايامه نسائم صباه، فساح في الأرض كدمع العاشق الأواه، فشرق وغرب كفكر يلوح في قلب مهجور يحتال للوصول، أو ريشة في مهبة الريح ساقطة، على أن عقله وإدراكاته ارسى من الجبال"(٧). وهذه سنة معروفة لدى شعراء الموصل في هذه المدة، فهم عندما يكملون دراساتهم في الموصل، يرحلون إماّ الى الشام ومصر أو الى بغداد ونواحي العراق للاستزادة من العلم، كي لا يبقى علم شائع في زمانهم دون معرفته، وهذا ما فعله أحمد ابن عبد الرحمن في طلب العلم فقط، فلم نعثر في ديوانه المخطوط الذي يزيد على ثلاثة آلاف بيت من الشعر، وكذلك في الكتب التي ترجمت له وعاصرته أمثال الروض النضر والشمامة ومنهل الأولياء، لم نعثر فيها جميعا على بيت واحد يمدح واليا أو متنفذا في عصره، ولم يتملق ابدا لسلطان، وهذه مزية مهمة لشاعرنا الذي عاش في مدة الحكم الجليلي، هؤلاء الذين اشتهروا بالعدل والصلاح ومقاومة الغزاة(٨)، لكن شاعرنا لم يمدح أحداً من الولاة في شعره.

ولم يكتف الغلامي بهذا القدر الذي ذكرناه، بل إشار اليه بعدما كبر وأسَنّ، مؤكداً بقاءه على عطائه وعلمه، فقال: "فها هو شيخ معمر، وعقله عقله لم يأخذ منه الكبر، وأدبه أدبه روض معطار تعاهدها المطر، ملحه ملحه كنز دقائق ودرر، ونشاطه نشاطه لم يغيره المحاق عندما تم ذلك القمر"(٩). نفهم من هذا الكلام أن شاعرنا عاش طويلا وصاحبه الغلامي في صباه واستمر على مصاحبته، وأنه بقي على مسيرة واحدة، لم تغيره الظروف، أكد هذا القول

ايضاً عصام الدين العمري (ت١١٨٤هـ) فقال: "تعمّر حتى عمّر في الفضائل منازل وشيدّ ربوعاً وروى الفصيح من أصناف الكمالات لأرباب المعارف مبتكراً ومسموعاً(١٠)"، ثم قال: "فصّار مرجع الأدباء وملهج لسانها، وحل من عيون البلاغة المحدقة مكان إنسانها، ورقى الى قمة هام النباهة فكان كالقطب في ذلك الفلك وصعد الى أعلى أنجاد الفقاهة، فكان كالبحر للسمك"(١١)، ووصفه محمد امين العمري بقوله: "كان رجلا فاضلا، له خبرة بلسان القوم، وطريق الصوفية، مع مشاركة في غير ذلك"(١٢).

هذا ما استطعنا جمعه من الكتب التي ذكرت أحمد بن عبد الرحمن وسيرته، وهي قليلة جداً، وربما يعود السبب الى ابتعاده عن الولاة وأصحاب السيادة والتزامه النسك والعبادة.

ومن خلال شعره عرفنا أنه كان متزوجاً وله أولاد، تبين ذلك في احدى قصائده التي يطلب فيها الشفاعة من الرسول ﴿ ﷺ ﴾ لاجل ولده حين مرض، قال فيها:

يا آل خير الَخْلقِ جمّا طه ... مَن للسموات العُلا أوطاها

ماأمّكم ذو حاجةٍ في عسرةٍ ... إلاّ وكنتمُ يُسْرَها بعطاهـا

ألى أن يقول:

فرّج عن الطفل السقيم سقامة ... وآدرك لرُوحٍ ما عصتْ مولاها

وآمننْ عليّ بنظرةٍ أنجو بها ... من شرّ نفسٍ خالفتْ تقواها(١٣)

أما وفاته فلم يذكر عصام الدين العمري (ت١١٨٤هـ)، ولا الغلامي (ت١١٨٦هـ) سنة وفاته، واشار محمد أمين العمري (ت١٢٠٣هـ)، الى أنه توفي بالموصل سنة الف ومئة وخمس وسبعين للهجرة (١١٧٥هـ)(١٤)، وهذا ما أكده الدكتور محمد نايف الدليمي(١٥)، وأشار صاحب هدية العارفين ومعجم المؤلفين الى أنه توفي في حدود سنة الف ومئة وخمسين للهجرة (١١٥٠هـ)(١٦)، وهو تاريخ غير دقيق، فقد عاصر الشاعر أحمد بن عبد الرحمن كلا من الأديبين عصام الدين العمري ومحمد الغلامي، ولو أنه توفي في السنة المذكورة لأشارا الى وفاته عند ترجمة حياته، ولكن أشار اليه محمد أمين العمري (ت١٢٠٣هـ) لانه عاش طويلاً بعد وفاة الشاعر.

مؤلفاته:

لم يقتصر أحمد بن عبد الرحمن على نظم الشعر الديني والعبادة، بل حاول أن يكون له نتاجات أخرى يفيد بها الناس في زمانه وبعد زمانه، لذلك قام بتأليف بعض الكتب التي لها علاقة بفكره وتوجهه الديني، مع ترجمة بعض الكتب من لغات أخرى، ومن هذه المؤلفات:

١- "الدر النقي في فن الموسيقى[١٧]"، وهي ترجمة لرسالة عبد المؤمن البلخي في الموسيقى ترجمها عن الفارسية، وفيها بيان للمقامات، وقد طبعت بمناسبة انعقاد المؤتمر الموسيقي في بغداد سنة ١٩٦٤، بتحقيق المرحوم جلال الحنفي.

٢- "ناشرة الفرح وطاوية الترح[١٨]"، وهي رسالة دقيقة في التصوف.

٣- "سراج الكلام في شرح كف الظلام[١٩]".

٤- "تذكرة المتذكر وتبصرة المتبصر[٢٠]".

هذه المؤلفات جاءت متممة لأشعاره التي قالها في العبادة ومدح الرسول ﴿ ﷺ ﴾ والزهد والتصوف ومدح الاولياء وغير ذلك، وهي في مجملها تخص الجانب الديني في بيان كثير من أمور الحياة الدنيا والاخرة وواجبات المسلم وغيره...

شعره:

ذكرنا آنفاً ان شاعرنا لم يتودد لاي من المسؤولين أو الولاة، وكان شعره يعبر عما في داخله، قال الغلامي: "امتزج شعره في مدح الانبياء وأهل الصلاح كما امتزج شميم إبنة العنب الفياح بشذا الحدائق إذا اكتلتها تحت اشجار القداح[٢١]"، كما قال عصام الدين العمري "تسلق الى بيوت الشعر وصعد الى أعلاها وحاز الغاية القصوى من النباهة فكان مناها[٢٢]"، وذكر محمد امين العمري فقال: "وله شعر رقيق على الطريق الغرامي يتابع فيه الشيخ عمر ابن الفارض[٢٣]".

ولو نظرنا الى مقدمة ديوانه المخطوط الذي كتبه الشاعر بنفسه، لوجدناه يقول: "وذكرتُ فيه منازل طريق مكة المشرفة من نحو الشام، وبعض شرح الحال لخير الانام، ووصف

مما قدح في الفؤاد من شدة الوجد والغرام وأتيت بعدها بأبيات بمدح النبي المصطفى ومدح بعض المشايخ الكرام الشرفاء، وحسنت بعض الابيات بتخميس على أحسن تأسيس..." [٢٤]

أي أنه صنع ديوانه ليكون خاصا بالجانب الديني فقط، وهذا ما وجدناه من خلال ديوانه المخطوط وبقية اشعاره الموجودة في الكتب الاخرى، مطبوعة وغير مطبوعة وهو يتوزع في اتجاهات عدة وعلى النحو الاتي:

١ – المديح النبوي

٢ – الزهد

٣ – التصوف

٤ – مدح الاولياء والمشايخ من أهل الطرق الصوفية

١ – المديح النبوي

للمديح النبوي جذوره العميقة في الشعر العربي، فقد لهج الشعراء بمدح الرسول ﴿ ﷺ ﴾ وذكر أوصافه ومعجزاته وحروبه وصحابته وكل ما يتعلق بالدين الجديد، وكانت قصيدة كعب بن زهير التي مدح بها الرسول ﴿ ﷺ ﴾ واعتذر اليه النموذج الأمثل لقصيدة المدح هذه[٢٥]، ومن ثم توالت قصائد ودواوين المديح النبوي...

أما أحمد بن عبد الرحمن الذي عاش في الموصل مدة الحكم الجليلي التي انتعش فيها المديح النبوي بسبب ظروف العصر الصعبة من المحن والويلات وغيرها من الامور التي وجهت الناس والشعراء الى الله سبحانه وتعالى ثم الى الرسول الكريم طالبين النجاة والشفاعة[٢٦]، وعليه فقد قدم شاعرنا نماذج عدة من قصائد المديح النبوي.

فمن القصائد المهمة في هذا المجال، الهمزية التي سار فيها على طريقة البوصيري (ت٦٩٥هـ) في رحلته من مصر الى الحجاز، فقد ذكر المواضع من مصر حتى نزوله عند قبر الرسول ﴿ ﷺ ﴾ وزيارة الكعبة المشرفة[٢٧].

لذلك سار شاعرنا على نهج البوصيري مصوراً تلك الرحلة من مدينة الموصل الى الشام ثم تحولها إلى الاردن والسير جنوبا نحو الحجاز حتى نزولها عند قبر الرسول ﴿ ﷺ ﴾ والكعبة المشرفة، قال في مقدمة قصيدته: [الكامل]

لمعتْ بروق القرب نحو النائي وصَغَتْ إذا أذني لصوت النائي
وغدتْ بلابلُ عَشْقَتي بغنائها تتلو الهوى في روضةٍ غَنّاء[٢٨]
فطربتُ وجداً بل رقصتُ تواجدا من طيب ذاك اللحن والإصغاء[٢٩]

هـذه المقدمـة الجميلـة التـي صـاغها الشـاعر فرحـاً بقـرب رحيـل اصـحابه متوجهين نحو الديار المقدسة، تشير الى مدى تعلقه بتلك الديار والرغبة في زيارتها ثانية، وقد نظم قصيدته على بحر الكامل، وهو يصلح للموضوعات التي تحتاج الى تعبير أكبر، وله مكان الصدارة في الشعر العربي[٣٠]، وبهذا خالف البوصيري الذي نظم همزيته على بحر الخفيف، على أنه استخدم أيضاً قافية الهمزة في قصيدته هذه.

ثم يبدأ برسم طريق الرحلة لاصحابه قائلاً:

وارحل من الحدباء عمداً راكب الشـ شَقراء شوقاً طالب الشهباء
وازمم نياقك بعدها لسراقبْ واقصد معرةَ ثم مِلِ لحماء[٣١]
وانزل على حمصٍ وخفّف بعدها مسراك نحو الشام بالسّراء
تلقى الضجيج علا الحجيج يؤمهم سيُر الدليل بلا خفا وجفاء[٣٢]

فالشاعر –كما اسلفنا– لم يشترك في هذه الرحلة، لكنه سبق أن رحل إلى الحج، لذلك نراه يقدم توجيهاته إلى أصحابه من خلال المناطق التي سيمرون بها، واستخدم أسلوب الأمر دلالة على شدة تعلقه بهذه الرحلة مع قبول أصحابه الذين يشتاقون الى معرفة كل صغيرة وكبيرة، لذلك يقول: "إرحل – إزمم – أقصد – إنزل..." ثم يأتي بعدها الفعل المضارع "تلقى" دلالة على تحقق الهدف عند الالتقاء بجموع المسافرين من الحجاج في مدينة الشام (دمشق).

ويستمر على ذكر هذه المواضع متجها نحو الأردن وبلاد الحجاز حتى تقترب القافلة من المدينة المنورة، بقوله:

والى الهَديّة إنْ هُديتَ فَعُجْ إذا   للفحلتين بلا عنا وأذاء(٣٣)
وإذا رَقيْتَ الى ذُرا وادي القرى   أبشرْ قَرُبْتَ لأمكن الإقراء(٣٤)

كل هذه المسافات التي قطعتها الرحلة لحج بيت الله الحرام وزيارة المدينة المنورة، والتقرب الى الرسول ﴿ ﷺ ﴾ وطلب الشفاعة والتوسل قائلاً:

فاسفح دموعك كالعقيق على عُلا   سفح العقيق بحرقة وبكاء(٣٥)
فلقد دنوت الى مدينة أحمد   خير البرية أكرم الكرماء(٣٦)
فاقبل على باب السلام وقبّل الـ   أعتاب وادخل روضة الإرضاء
وأقر السلام عليه عني واصفاً   فرط العنا من لوعتي وشقائي
قل: يارسول الله هل من زورةٍ   لحماك قبل الموت والإقصاء
واخبره أنّي كلّما رمت السّرى   ثِقُل الذنوب تُقيمني هي دائي
وضَعفِتُ منها ما دعت لي قوة   فاجبر لكسري مسند الضعفاء(٣٧)

هنا يذكر بعض مراسيم الحج، ثم زيارة قبر الرسول ﴿ ﷺ ﴾ واداء السلام والتحية، ويرسل سلامه عن طريق الزائرين معلناً معاناته وشوقه للزيارة، ويستمر على طلب الشفاعة مقدما مسوغات عدة منعته من الزيارة الثانية –هذه– ويستمر على ذكر مناسك الحج قائلاً:

واستودع المختار وارحل سائراً   لربى قبا ومنازل الشهداء(٣٨)
تلقى الجديدة جُدَّ بالمَسْرى عسى   تحظى وتظفُر بعدها بالصفراء(٣٩)

هذه المناطق عاشها الرسول ﴿ ﷺ ﴾ ونشر فيها الاسلام، وبعضها من مكملات أمور الحج، ويكرر الدعاء والتوسل ومحبة الرسول ﴿ ﷺ ﴾ وارض الحجاز "وهي مسالة تعارف عليها الشعراء، يدعو الشاعر ويستغيث الله سبحانه وتعالى والرسول لينقذ ويغيث الداعي في الكروب

والخطوب والشدائد والاحداث والازمات التي كثيراً ما كانت تحدث في تلك الظروف الصعبة التي مرت بها الامة(٤٠)" قال الشاعر:

وانقل لهم خبري ونار تشوّقي بتلطف الاخبار والانباء

واقصصهمُ قصص الغرام مفصلا واشرح حديث العشق والأهواء

يا من بهم قد لذّ ذليّ بل أرى عذباً عذابي فيهمُ وعنائي

زاد افتضاحي من نُواحي وامتلتْ منه نواحي الموصل الحدباء(٤١)

هنا دخل الشاعر في صلب الموضوع عندما توسل باصحابه لينقل مشاعره وعذاباته الى من يحب في تلك الديار العزيزة، واخيراً يطلق الكلمة المعروفة التي سمّي بسببها (المسلّم) بقوله:

إن ضاع قلبي إنني لمسلّم فالله يعلم علّتي ودوائي(٤٢)

هذه القصيدة تمثل نموذجاً جيداً للشاعر عندما استخدم السير الى الحج وذكر المناطق التي يمر بها الحجاج، ثم ينقل سلامه وتوسلاته الى الرسول ﴿ ﷺ ﴾ ونقل واقع الناس وظروفهم ووسيلة الحج في ذلك الوقت.

لذلك برع الشاعر في اختيار المعاني والوسيلة التي استخدمها للوصول الى هدفه، وإن كان أسلوبه لم يصل الى مرتبة أسلوب البوصيري ولربما يعود ذلك الى عصر الشاعر الذي مال الى النثرية والسهولة.

وله قصائد أخرى كثيرة في مدح الرسول ﴿ ﷺ ﴾ تناولت سيرته ومعجزاته وصحابته..، فقد بدأت بعض القصائد بذكر الديار الحجازية والتشبيب بها والشوق اليها على طريقة بعض الشعراء(٤٣) في مدح الرسول ﴿ ﷺ ﴾ يقول في إحداها: [الرمل]

رقّ لي حادي المطايا ورثا مذ رأى القلبُ سقامي ورَثا

آه واشوقي ويا لهفي لما في الحشا من نار بعدي حدَثا

قسماً بالوجد قلبي ماسلا ومواثيق الهوى لن أحنُثا
إن لويتم عن ربا سفح اللّوى فعلى وادي القرى لا تمكثا[٤٤]
واطلبا سلعاً وفي الأحيا سلا عن فؤادي وغرامي حدّثا[٤٥]
وإذا وافيتما دار الذي ملَكَ الروحَ فحالي أبثثا
وأسألاه زورة لي قبل أنْ أسكن القبرَ ولحدي ألبثا[٤٦]

فالشاعر هنا يصرح بولائه وتعلقه بالرسول ﴿ ﷺ ﴾ وبتلك الديار التي عاشها وتنقل فيها، وهي سنة سار عليها شعراء المدائح النبوية، على اننا لم نجد لديه أيّ غلو أو مبالغة في هذا المدح وذكر الصفات، فهو يعلن عن شدة حبه وسهره لاجل الممدوح والتقرب اليه، متمنياً زيارته قبل مماته.

ويمدحه ﴿ ﷺ ﴾ في قصيدة أخرى ذاكراً صفاته ومعجزاته من دون مقدمات:

[الرمل]

من يرِدْ بالنطق يحصي ما حصا فضل من فاه بكفّيه الحصى
سيد الخلق حبيب الحقّ مَن أَنزلَ القرآن فيه قصصا
نور دين الله بل بهجُته طائع لله ما يوماً عصا
صاحب المعراج من وافا الى حضرة القدس وفيه خُصّصا
كامل الأوصاف والأخلاق لم تْلقه إلاّ منيبا مخلصا[٤٧]

فقد استخدم السرد القصصي، كي يستطيع توضيح فكرته، منها معجزة تسبيح الحصى في يديه[٤٨]، والاسراء والمعراج العظيمة، في مسير الرسول ﴿ ﷺ ﴾ ليلاً من مكة المكرمة الى القدس الشريف، والصعود الى السماء والعودة في تلك الليلة نفسها الى مكة، ثم ابلاغ الناس بما رآه في رحلته فكانت معجزة حقيقية[٤٩]، واشار أيضاً الى حسن أخلاقه مفيداً من القرآن الكريم عندما خاطبه سبحانه وتعالى ﭽ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﭼ[٥٠] مختتماً قصيدته بطلب المغفرة:

كلما رمتُ مسيراً نحوه ذقتُ من عظم ذنوبي غُصصا

وأسألاه للمسلّم عطفةً يوم يلقى كلّ عبد شَخَصا[٥١]

ولم يترك الشاعر أية لحظة أو مناسبة يذكر فيها الرسول ﴿ ﷺ ﴾، ويبين فيها محبته له وتعلقه بشخصه والأماكن التي عاشها فهو مولع بها يرسل سلامه مع الراحل اليها ويروي معاناته بسبب البعد متمنياً زيارتها، بقوله في قصيدة اخرى: [الكامل]

ما بين سفح الأخشبين فؤادي خَلّفته فلذا عدمتُ رشادي[٥٢]

ولبعده عن ناظريَّ تسابقتْ حمرُ الدموع على الخدود غَوادي

ولجيرةٍ سكنوه قلبي في النوى مقتولُ عشقٍ ما لهِ منِ فادي

يا أيها الغادي لذاك الحيَّ:قف بين الربوع مسلّما يا غادي

عرّض بذكري عند من أحبتهُ باللّطف حيث منازل الأوتاد

فعسى يقل: كيف العبيد تركته؟ أم كيف حالُ المستهام الصادي؟

واشرح له فرط الغرام بحبه وانقل حديث تفتتّ الأكباد

قل: عُبدك المضنى له ولَهٌ الى رؤياك حال جلّ عن أنداد[٥٣]

واشعاره التي ارسلها من الموصل مشتاقاً الى تلك الديار كثيرة في هذا المجال[٥٤]، فقد نظم مجموعة من القصائد في مدح الرسول ﴿ ﷺ ﴾ على عدد حروف اللغة العربية، منها قوله: [البسيط]

دع حَمْدَ سلمى وليلى حاديَ النَّعَمِ وأمدح وَعُدْ حُسْنَ أحْبابي ذوي النُّعُم[٥٥]

كرر على اذني أوصاف ذكرهم كي تشتفي كبِدي من لوعة السّقَمِ

إلى أن يقول:

محمد أحمد المحمود خُلْقَتُه من نور ربّ الورى جَلّتْ فَلم تُضَم

وكلّ نور بدا في وصف بهجته والشمس والبدر والأفلاك كالظُلَمَ

والعنكبوت بباب الغار قد نسجتْ وباض طيرُ حمامٍ والعدوُّ عُمي[٥٦]

وخلاصة القول فقد كان مدح الرسول ﴿ ﷺ ﴾ وذكر صفاته ومعجزاته وطلب الشفاعة وسيلة أساسية استخدمها الشاعر في عدد كبير من قصائده.

٢ – الزهد

منذ البدايات الاولى لظهور الإسلام توجه الصحابة والمسلمون الى الزهد في الحياة الدنيا رغبة في رضا الله تعالى، وكان الرسول ﴿ ﷺ ﴾ من أول الزهاد الذين ارتضوا بالقليل في حياتهم، ومن ثم سار الاخرون مقتدين بشخص الرسول ﴿ ﷺ ﴾ والصحابة الكرام. وفي تاريخ الإسلام رجال عظام رفضوا الدنيا ومتاعها الزائل، ورضوا بالكفاف وكان بمقدورهم التمتع بالحياة الدنيا لما يملكون من مال وجاه، لكنهم بذلوا تلك الاموال في سبيل الله وعلى الفقراء والمحتاجين[٥٧].

فكلمة الزهد تعني الوقوف "ضد الرغبة والحرص على الدنيا، والزهد في الاشياء كلها، ضد الرغبة، ولا يقال الزهد الا في الدين خاصة"[٥٨].

وعليه كان الزهد ولا يزال رغبة من الشخص في ترك الدنيا الفانية خوفاً من عقاب الله تعالى، فضلاً عن رغبة الزاهد في الحصول على رضا الله ثم الدخول في جنته..

وبمرور الايام وتوالي المحن على العالم الإسلامي داخلية كانت أم خارجية، حدثت ويلات ومآسٍ كثيرة، توجه الناس على اثرها الى التوبة، فضلا عن التوجه الديني لدى ولاة الموصل أيام الحكم الجليلي الذي اشتهر بالعدل ونشر العلم بين الناس عن طريق المدارس والمساجد التي نشرت أصول الدين والفقه والعبادات والعلوم الأخرى[٥٩].

وكان أحمد بن عبد الرحمن من الشعراء الذين توجهوا الى الزهد وتركوا الدنيا وملذاتها طلبا للاخرة، وهذا لا يتحقق إلاّ من خلال مجاهدة النفس والعبادة الصالحة، فبدا ذلك واضحا في قسم من أشعاره، التي نادى فيها بترك متاع الدنيا والتمسك بالآخرة، لانها خير زاد ساعة الشدة، مثال ذلك قوله: [الرمل]

يا الهي مقصدي منك الرضا لا تكن عني –إلهي– معرضا

كن أنيساً إذا ضاق الفضـا فبسوء الذنب قلبي أمرضـا

آه والهفي على عمري مضى

سيدي مولاي ضاقتْ حيلي مالكي شكواي تبري عللي

فتدارك غارقا في الزلـل وتلطف بيَ يوم الخجـل

آه والهفي على عمري مضى(٦٠)

فقد توجه الى الله طالباً الرضا، راجياً أن يكون أنيسه يوم الحشر، معترفاً بذنوبه، وهي طريقة اتبعها الزهاد، وإن لم يكونوا مذنبين، وكان النداء الذي ابتدأ به تخميسه وقصد به التوسل والدعاء من الادنى الى الاعلى، لإعطاء صورة جميلة عن الوفاء والالتزام، لذلك ظل يتوسل بالله حتى أخر تخميسه... ويردد دائماً اعترافاته بذنوبه وخوفه من الله سبحانه وتعالى، ويستدرك أخيراً بان الله غفور رحيم يستر عيوب التائبين، قال مرة ثانية: [الرمل]

راحة القلب إذا كان رضاه وعنائي ومماتي من جفاهْ

ويحَ صبٍّ ضيّع العمر وتاه فإذا لم يبلغ اليوم عطاه

آه واحزني غدا يوم لقاه

إن يقل عبدي بما قابلتني كم وكم بالذنب قد بادرتني

م بأمر الخير قد خالفتني وبسوء الوزر قد واجهتني

آه واحزني غداً يوم لقاه

كم فعلتُ الذنب والمولى غفَر كم كشفت العيب والله سَتَرْ

ما تذكرت مبيتي في الحُفر لا ولا قلت غدا آتي سَقر

آه واحزني غدا يوم لقاه(٦١)

فهو يذكر أخطاءه ثم يذكر فضل الله عليه، فكم عصى ربه وقضى حياته في أمور لا تستحق الذكر، لذلك أحسّ الندم، وبخاصة عندما يلقى ربه يوم الحشر، وقد أعطى الشطر

الاخير المكرر في كلّ قطعة مخمسة قصيدته قيمة كبيرة لأنها تدل على إحساسه بالخوف والندم من عذاب ربه.

ويحاول ثانية تنبيه نفسه والاخرين من غفلة الدنيا، فعلى من أخطأ تدارك الامر والرجوع الى جادة الحق والصواب وترك الذنوب والسير على طريق الخير الذي أمر به الله سبحانه وتعالى، وأن يكون صادقاً في اقواله وافعاله: [الكامل]

يا غافلا في تيهه متعوّقُ　　　قم علّ من قيد التباعد تطلقُ
أتظن في دعواك أنت محقّقُ　　　لو كنت في دعوى المحبة تَصدق
ما بال قلبك ساكناً لا يخفق
أترك هوى الشيطان تُصبح آمنا　　　من كل خوف في الحساب وفي هنا
من بعد ذا للنفس أَمسي هائنا　　　لا تدّعي ولها وقلبك ساكنا
منا وأنت بغيرنا متعلق
وارض الاله بما أَمَرْك وأعْلنا　　　بالذكر حتى تتصل بذوي الثنا(٦٢)
وإذا وصلت فلا تفارق ما هنا　　　صَن سرّ سترك عن سوانا تلقنا
بطلائع البشرى وانت موفق(٦٣)

فأشعاره كلها تدور حول معنى واحد ولكن يعبر عنها بطرق مختلفة في التوكل على الله والتوسل به والشعور بالذنب ثم طلب المغفرة والعفو لانه يعلم أنه لا ملجأ الا اليه في كل الاحوال، فدلت هذه الاشعار على حسن نيته في التوسل بالله سبحانه وتعالى، بقوله: [الكامل]

يا واحداً في الكون أنت الأوحُد　　　إني لعزّك في الوجود أوحّدُ
يا ربنا انت القريب تنزّها　　　عن مُشْبِهٍ وعن النظائر مفرد
أنت المقّدس عن أبٍ معْ زوجة　　　إذا لم تلد بل لم يكن لك يولد
جلّيتَ عن نوم وعن موتٍ وعن　　　عللٍ وشركٍ لا لعزك يُسند(٦٤)

فقد اشار الى الله الذي لا شريك له مفيداً من سورة الصمد وترجم معناها في اقتباس اشاري مؤكداً ما اراده في تكرار الالفاظ: واحد – الأوحد – أوحّد – مفرد،... وغيرها التي لها دلالات معنوية في بيان زهد الشاعر وحسن أيمانه، وهي تختلف عن بعض أشعاره في التصوف التي سنأتي اليها لاحقاً.

ويتوجه شاعرنا أحياناً الى قصائد ومقطعات بعض الشعراء البارزين من أعلام الامة العربية الإسلامية، يحاول من خلالها أن يبرهن قابليته على مجاراة الاقدمين والسير على نهجهم، منها تخميس[٦٥] أبيات الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في الزهد:

[مجزوء الكامل]

يا من أنستُ بفكره　　　يا من أذلّ لقهره

يا من جبرتُ بجبره　　　(يا من يحلّ بذكره

عقد النوائب والشدائد)

يا ربّ عبدٌ قد بكا　　　يشكو زمانا مهلكا

وبباب جودك إتّكا　　　(يا من إليه المشتكى

وإليه أمر الخلق عائد)

يا ربّ بالي باليا　　　والحال ليس بحاليا

ولقد اقول مناجيا　　　(يا حيُّ يا قيوم يا

صمد تنزّه مضادِد) [٦٦]

فقد التزم الشاعر بفكرة الإمام علي في الزهد والمناجاة والتوسل بحبل الله لان الحل والعقد بيده، فلا خلاص الا التوجه اليه دائماً، وهي أمور سليمة سار عليها الرسول ﴿ ﷺ ﴾ والصحابة الكرام...

٣ – التصوف

على مرّ التاريخ نجد أن المبادئ والاديان تدخل فيها بعض الظواهر، قسم منها تمثل جهوداً خيرة من الشخص المسلم تقوي من أواصر المبادئ الأساسية لتلائم الظروف وتطورات العصر، وقسم أخر تمثل تطرفاً تضر هذه المبادئ، وجرى الأمر بالنسبة في ظاهرة الزهد والتقوى في الإسلام، فقد قام بعض الزهاد والمصلحين بمجاهدة النفس مع الرياضة الروحية تقرباً الى الله سبحانه وتعالى، من أجل تطمين النفس، لذلك ظهر الحب الالهي مع تجاوز الظاهر للوصول الى كشف بعض الحقائق التي يؤمن بها(٦٧). فالفرق بين الزهد والتصوف في بداياته الاولى، كان الزهد يمثل عبادة ونُسكاً وتركا للدنيا مع الدعوة الى التوبة والصلاح، اما التصوف فيقوم على التعمق في دراسة النفوس وخلجاتها مع الوصول الى معرفة الخالق بالكشف والمجاهدة والوجد والوله(٦٨)، أي ان "زهد هؤلاء الزهاد هو البذرة الثانية التي نبت فيها تصوف الصوفية"(٦٩).

وقد قوي هذا التيار في العصر العباسي وزاد تأثيره في العصور المتأخرة، للظروف الصعبة التي مر بها العالم الإسلامي –مما اسلفنا– لذا ازداد تعلق الاشخاص بهذه الطريقة التي تعطي الفرد حرية أوسع في التعلق بالخالق وبالدين وغير ذلك.

فظهر شعراء بارزون عبروا عن معتقداتهم وارائهم عن طريق اشعارهم التي صوروا فيها أحوالهم في التعلق والوجد مع ذكر مصطلحاتهم وتعابيرهم، وغير ذلك... فالتصوف الإسلامي "حقيقة من حقائق قوم عكفوا على باطن الشريعة المطهرة، بعد أن تفقهوا في ظاهرها(٧٠)".

وعليه أشار أحمد بن عبد الرحمن الى أنه ينفر من الافكار والعقائد التي تضر بالدين، فكان يرى التصوف ذكرا وعبادة ومجاهدة في حب الله عكس ما يقوم به الاخرون من خداع الناس وتشويه للحقائق بلبس الخرق البالية من الصوف وترك الأهداف الاساسية في التصوف بقوله: [الرمل]

كم جهول العشق قد لام على　　حبكم والحبُّ مافيه نُكر
يحسبُ العشق بلبسي خرقةٍ　　أو بعكازٍ وصوف ووبر
إنما الحب بتمزيق الحشا　　وبإطلاق وذلٍ وفكر

ليس في الفرق غرام وجوى إنما الوجد بجمع مستقـر

إنّ سمعي عن أحاديث السوى صمَّ لم يُصغْ للغْوٍ في الخبر

كافر في زهد قوم أشركوا إن قلبي في هواكم قد كفر(٧١)

وعليه فقد نظم شاعرنا قسماً من أشعاره في وصف أحواله وتعلقه بالله سبحانه وتعالى يتوسل اليه ويرجو منه الشفاعة في دنياه واخرته لانه وحده الرزاق الذي يعطي ويعفو وهو العالم بكل شيء لذلك توجه اليه طالباً منه الستر والغفران، قائلاً:

[البسيطِ]

لباب وجودك قد وافيت استعطي لأنّك انت الاله المنعم المعطـي(٧٢)

وأنت ربّ الورى جلّيت عن شُبُه وأنت رازقهم في الرفض والقحط

وأنت عالم مافوق السما ومـا تحت الأراضي ومن في القبض والبسط

وأنت ساتر من أحببتَ سِتْرَتَه فاستُر عُيوبي وبالإحسان لي غطـي

واغفر ذنوبي وما أَسَرْفتُ من عمري واكشف كروبي بسرّ الباء في الخطّ

فغير عفوك ما لي ملجأ أبـداً وفي مأربي ارجو اللطف في السَخْط(٧٣)

هـذه أمـور تعـارف عليهـا المسـلمون وهـي طريقـة سـليمة فـي مرماهـا لا شـبهة فيهـا، فالتوسل والشفاعة لله وحده، يشترك فيها الصوفي والزاهد في معانٍ متقاربة جداً.

ونجده في قصائد اخرى كثيرة يتوجه الى الرسول (ﷺ) وبعض الصحابة، ويتوسل بهم لكشف ما اصابه من ضر ويطلب الشفاعة في الاخرة، وهي طريقة سار عليها كثير من اصحابه المتصوفة، مثال ذلك قصيدته التي ذكر فيها حب الرسول (ﷺ) وبيان معاناته وشقائه وطلب فيها الشفاعة، بقوله: [الكامل]

من فرط وجدي قد بقيت ذليـلا أفلا تكن لي في هواك دليـلا

يا غاية المقصود يا من حبـه ألقى بقلبي حرقة وغليـلا

أودعتَ في طرفي السهاد وطال ما — أوعدتُ طول البعد منك وصولا
وأسلت دمعي عَنْدَما فلعل أنْ — القاك تسأل عن دمي تعليلا[٧٤]
لا استطيع الصبر عن حِبّيْك لو — أُسقيت من سحب الملام سيولا
ديني هواك وحسن وجهك قلبي — فله أصلي بكرة واصيلا[٧٥]

من خلال هذه المعاني نجد التعلق بشخص الرسول ﴿ ﷺ ﴾ وبيان معاناة الشاعر عن طريق التعابير الصوفية التي تسمح له بالصبر والمواجدة والسهر فهو يلهج بذكره ليل نهار، ويستمر على هذه الحال في دنياه وبعد مماته يرجو الشفاعة من الرسول ﴿ ﷺ ﴾ والعفو من ربه، متمنياً أن يكون مماته على خير وأن يجد يسراً عند السؤال، بقوله:

وإذا اضطُجعتُ بحفرتي لا تغفلوا — بل لقنوني وصلهم تنقيلا
وإذا أتاني الاسودان ليسألا — عن خالقي فليتركا المسؤولا
وليسألا عني الحبيب فإنه — أدرى بحالي لا يريد رسولا
فلعلّ محبوبي يكون مسائلي — إن كان نلتُ القصد والمأمولا
وإذا أتاني بالكتاب وقال لي: — إقرأ كتابك حيث كنت عجولا
لقرأت ظني فيك عفواً –عن خنا– — يأتي وصار الظن فيك جميلا
ولقد جعلت لك القياد مسلّما — إذ لم أكن في العشق فيك جهولا[٧٦]

هذه الطريقة التي سار عليها الشاعر جعلته يؤمن بأنه يجد الرسول ﴿ ﷺ ﴾ بعد مماته مدافعاً عنه، لما قدمه من عبادة وتقوى وتضحية وحب للرسول ﴿ ﷺ ﴾ ولدينه الحنيف، على أمل ان يجد العفو والسماح...، علماً ان التوسل والاستعانة والاستغاثات كلها تكون لله سبحانه وتعالى وحده، استناداً لقول الرسول ﴿ ﷺ ﴾ "أنه لا يستغاث بي إنما يستغاث بالله عز وجل"[٧٧]، وذكر ابن تيمية رحمه الله فقال: "فلا يجوز لأحد الاستغاثة بغير الله لا بملك مقرب ولا نبيّ مرسلٍ"[٧٨]. بذلك كان هذا الامر خروجاً عن المألوف في شعر أحمد بن عبد الرحمن، على أن المتصوفة كان لهم اعتقاد بهذا المبدأ في شفاعة الرسول والاولياء، لذلك وجدنا شاعرنا

يتعلق بشخص الرسول ﴿ ﷺ ﴾ واصحابه الاولياء الصالحين، ويستنجد بهم في الشدائد وأيام المحن وهم سيشفعون له عند الله سبحانه وتعالى: بقوله:

[الكامل]

يا سيدي يا مصطفى يا هاشمي   يا يَثْرِبي يا إبن زمزمَ والصّفا
أرجوك يوم العرض يا خير الورى   فعسى تكن لي بالشفاعة متحفا
من للفقير المستجير إذا أتى   للعرض في يوم القيامة خائفا
عزُّ الحبيب محمدّ أزكى الورى   من فاق كلّ الانبياء تشرّفا
فخرُ الوجود وبهجة الدارين إذ   يعطي الشفاعة في الحساب تلطفا
يا ايها الصبّ المسلّم جُدْ ولا   تنكر مديح الهاشميّ وعرّفا
صلى عليه الله ربي ما بدا   فجر الوجود وداجي الهجر آختفى(٧٩)

ونجده أحيانا يستلهم الشعر العربي، وبخاصة القصائد التي تلائم توجهاته وأفكاره، وهذا العمل يستوجب على الشاعر السير على منوال القصيدة الاولى مع توضيح بعض المعاني أو إضافة افكار ومعانٍ جديدة فتصبح القصيدة على شكل آخر تحوي أبيات الشاعر القديم مع أبيات الشاعر الجديد، وقد أصبحت ظاهرة بارزة في هذا العصر(٨٠)، مثال ذلك تشطيره(٨١)، لقصيدة ابن الفارض (ت٦٣٢هـ) قائلاً:

[البسيط]

(هل نار ليلى بدت ليلا بذي سلم)   حتى أنارتْ جبال البيت والحرم
أم من تبسّم أحبابي الظلامُ أضا   (أم بارق لاح في الزوراء كالعلم)
(ارواح نعمان، هلاّ نسمة سحراً)   تُحيي قتيل غرامٍ حلّ في حرم
ويا بروق الغضا هلا لمعتِ ضحى   (وماء وجرة هلاّ نهلة بفم) (٨٢)

يحاول الشاعر أن يسير وفق مطلع شيخه عمر بن الفارض في ذكر الديار الحجازية وبيان مدى تعلقه وشوقه لها، فاستطاع أن يقدم هذه اللوحة الجديدة التي لا يحسّ المرء خلالها أي تباين في الالفاظ والمعاني، ويستمر الشاعر على هذه الحال طالباً من زوار البيت الحرام أن يمروا على تلك الديار المقدسة، وأن يبلغوا سلامه لأحبابه الساكنين هناك، مصوراً همومه وأحلامه في رؤية قبر الرسول ﴿ ﷺ ﴾ والمناطق التي عاشها أمثال: سلم_ العقيق – يثرب، وأخيراً يحس الراحة ويقتنع بالحلم (الرؤيا) أي رؤية الرسول ﴿ ﷺ ﴾ في منامه، أو زيارة قبره، فيقول:

فقد قنعت بطيفٍ منكمُ وأنا (بمضجعي زائر في غفلة الحلم)
(آهاً لأيامنا بالخيف لو بقيت) طول الزمان بوصل غير منفصم(٨٣)
ومن لياليَ منّا أوّاه لو كملَتْ (عشراً، وواها عليها كيف لم تدم) (٨٤)

ففي الأبيات كثير من التعابير والمعاني الصوفية في التعلق بشخص الرسول ﴿ ﷺ ﴾ والحنين الى تلك الايام الجميلة التي قضاها في الحج، والتعلل بالصبر والاحلام التي يشبع فيها بعض رغباته، وامثلة هذه القصائد كثيرة في شعره(٨٥)

ومن سمات شعر المتصوفة أيضاً ذلك الشعر الذي تغزلوا فيه بالذات الآلهية وبمدح الرسول ﴿ ﷺ ﴾ وذكر صفاته فمن يقرأ تلك الاشعار يجد الاوصاف الجميلة المرتبطة بالغزل من وصف المحبوب وذكر للجمال والعشق الالهي والسهر والمكابدة والتعلق بالديار وساكنيه فقد "استعان الشعراء المتصوفة بالفاظ الشعراء العذريين واسماء محبوباتهم، حيث ترنو قلوب المحبين في كلا الحالين الى التجرد من القيم الحسية الى قيم معنوية..." (٨٦) وهذا ما ظهر بكثرة في شعر أحمد بن عبد الرحمن، قال: [الكامل]

يا صاحبيَّ عن الغرام سلانيا فلهيب شوقي في الفؤاد سلانيا
واستفهما قصص الصبابة وانقلا خير الورى عن مستهامٍ نائيا
يروي الهوى عن مقلة سهرانة تذري دموعاً بالدوام دواميا(٨٧)

ويستمر على بيان حبه ومعاناته، فلا يرى فيها المرء سوى غزل عفيف فيها السهر والتضحية دون معرفة الحقيقة في هذا الغزل والعشق الصوفي عدا بعض الالفاظ التي تنبيء عن هذا اللون من الشعر منها: "التواصل، الحال، الرضا، الوجد..."، وعليه فقد "أفضى هذا الحب بالصوفية الى الاستسلام المطلق لقضاء الله وقدره، وهذا الاستسلام المطلق لإرادة الله عز وجل جعل الصوفية يميلون الى الذلة والانكسار والخضوع لهذه الإرادة خضوعاً تاماً، وكانوا يستشعرون في ذلك لذة كبيرة تشير الى أسمى آيات الحب..." [٨٨]قال:

قل للذين تملكوا روحي لقد غادرته لحشائه متلاقيا
يشكوكم فرط البعاد وإنه يرجو التداني منكُم وتلاقيا
إن بان لمع البرق من أطلالكم ابدى التلفت يمنتي وشماليا
وأظنه برق التواصل فرحة فأهيم حزناً مُذ أراه خاليا
إن قيل من هذا العليل بنا، فقل: تدرونه، أو قيل: إنّك داريا
فأشرح لهم حالي وما شاهدت من فرط آندهاشي بكرتي ومسائيا
واستنشد الأحباب عن قلبي فقد خَلّفُته عند التخلّف باقيا
واخيبتي إن لم يمنوّا بالرّضى عني والاّ كنتُ عبدا عاصياً[٨٩]

بهذا أصبح "شوق المشاهدة واللقاء اشد من شوق البعد والغيبوبة، فيكون في حال الغيبوبة مشتاقاً الى اللقاء، ويكون في حال اللقاء مشتقاً الى زوائد ومكارم من الحبيب وأفضاله..." [٩٠].

واشعاره في الغزل الصوفي كثيرة في هذا المجال، والفاظه ومعانيه متقاربة، لا تتجاوز الشوق والهجران والغرام والصبر، والوجد وغير ذلك[٩١].

وللشاعر قصائد جميلة نظمها على طريقة اصحابه المتصوفة في الخمرة الصوفية، وهي لا يدرك معناها الاّ بعد التعمق فيها لمعرفة حقيقتها، ذلك أن الشاعر يذكر فيها الخمرة

وأنواعها وأدواتها وسقاتها ومن ثم نشوته بهذه الخمرة الى غير ذلك من الامور المتعلقة بها، يقول في احدى هذه القصائد: [الرمل]

أدخل الحانات تحيا إن تشا فبها يا صاحِ قلبي إنْتَشا
جُبِلتْ ذاتي عليها قدما واليها قدمي شوقا مشا
فإذا ما رمت أن تحفى بها فاجعل الروح مع القلب رشا
وادنُ نحو الدنّ ليلا خاضعا فمدير الراح يجلوها عشا
إذا ما قيل: هل من شارب؟ قل له: إنّي بها ضامي الحشا[٩٢].

فمنذ اللحظة الاولى يظن القارئ أنها في الخمرة الخالصة. فقد ذكر الشاعر بهذه الابيات الجميلة والقافية الرنانة سيُره نحو الحانة، ووصف الخمرة وشوقه اليها ليلا، لكن بعد التمعن في الفاظها ومعانيها يستطيع كشف الحقيقة من خلال المصطلحات التي وردت عند الصوفية في هذا المجال، يقول:

سُعدِ الساعي اليها بالصفا إذْله العيش صفا مما يَشا
والذي عنها بعيداً صاحبا ذاك بالعصيان جهلاً فُحِشا
شربها ديني وسمعي صمَّ عن عذْلِ لاحٍ إنْ شواني أو وشا
قم وبادر يا مسلم نحوها لا تَقفْ سكران منها إن تشا[٩٣]

فقد بين الشاعر صفاء روحه وعيشه عند ملازمته هذه الخمرة، فهي بمثابة الروح لجسمه ولا يستطيع عنها بعداً، فالخمرة عند الصوفي هي السكر عن طريق المحبة الإلهية والخمار أي صاحب الخمر تعني الشيخ الذي يسقي تلك الخمرة الإلهية[٩٤].

وله اشعار أخرى في الخمرة الصوفية تتشابه فيها المعاني وكلها تدور حول معنى واحد[٩٥].

تبين مما تقدم ان الشاعر الصوفي استخدم كل الطرق من مدح وغزل إلهي وخمرة صوفية وغير ذلك رغبة منه في التقرب الى الله سبحانه وتعالى أو الى الرسول ﴿ ﷺ ﴾ بطلب

الشفاعة والتوسل من خلال التفاني في العبادة والتقوى لكشف الحجب فهو يسلك كل وسيلة في المجاهدة كي ينال رضا المحبوب فعلى قدر المشقة التي يقدمها يكون جزاؤه عند الممدوح (المحبوب) كبيراً.

٤ – مدح الاولياء والمشايخ من اهل الطرق الصوفية:

بعد أن توجه شعراء التصوف الى ذكر الله سبحانه وتعالى ومدح الرسول ﴿ ﷺ ﴾ توجه بعضهم الى أولياء الله الصالحين من أصحاب الطرق الصوفية التي شاعت في العصور المتأخرة، واصبح لهم نفوذ ايام الحكم العثماني، فبقي قسم من المتصوفة في السير وفق الشريعة الإسلامية واهدافها السامية، ومال قسم أخر الى نوع من الاوهام والخرافات والتشعب في أمور رفضها الإسلام[٩٦].

أما أحمد بن عبد الرحمن فقد سار على نهج المتصوفة المعتدلين في عبادة الله سبحانه وتعالى –كما اسلفنا– لكنه مدح بعض الاولياء الصالحين من اقطاب المتصوفة الذين قضوا حياتهم في النسك والعبادة في كثير من الاحيان، والذين اصبحوا –حسب إدعاء شعراء التصوف– رموزاً يقتدى بهم، وعليه وجه شاعرنا كثيراً من قصائده في مدح هؤلاء المشايخ، التي بين من خلالها صفاتهم وتضحياتهم في سبيل العقيدة المحمدية، ومن هؤلاء السيد أحمد الرفاعي شيخ الطريقة الرفاعية[٩٧]، "موجهاً وجهه اليه فهو القطب الذي حاز على أعلى الرتب وهو القصد والذخر من بين السادات مصرحاً باسمه جهاراً فهو مداوي القلوب وراعيها في جميع حركاتها والمستمسكون بطريقته قد خَصّهم الشاعر ببركات وفضائل عظيمة إذ ينجيهم إذا ما اصابتهم كربة"[٩٨]، بقوله: [الكامل]

وجهت وجهي من جميع جهاتي ... مستمسكاً بطريقة السادات
بسلوك قطبٍ حاز أعلى رتبةٍ ... شيخ الطريقة صاحب السطوات
قصدي وذخري ذاك فخري أحمد ... إبن الرفاعي أحمر الجمرات
يا ايها المستمسكون بعهده ... قد نلتم من أعظم البركات
هو حاضر عند الممات وبعده ... عند الصراط وجملة الأوقات

يا اولياء الله أنتم عدّتــي   وذخيرتي أنتم كذاك حُماتي[٩٩]

فالشاعر يصف شيخ الطريقة بنسبه الكريم الذي يصل الى الرسول ﴿ ﷺ ﴾، فهو مداوي القلوب، والذين يسيرون على نهجه ينالون أعظم الدرجات، فهو يزيل عنهم الشدة والبلاء ساعة الضيق، ووصفه بالقطب، وشيخ الطريقة، وصاحب السطوات، وهي من المصطلحات الصوفية، لذلك فهم عدته في حياته ومماته. ناسياً أن التوجه يكون لله وحده بذلك تجاوز ما هو مشروع كما بينا سابقاً، قال ابن قيم الجوزية: "من أنواع الشرك طلب الحوائج من الموتى والاستغاثة بهم والتوجه اليهم..."[١٠٠].

ويستمر أحمد بن عبد الرحمن على قصائده بمدح الشيوخ وذكر محاسنهم ويبين حبه وتعلقه بهم، ثم يرجو منهم الشفاعة في توسلهم عند الحبيب محمد ﴿ ﷺ ﴾، في قوله، مادحا الشيخ عبد القادر الكيلاني:[١٠١].   [الكامل]

ما آن أن تنفي الصدود وأنْ تفي   إن غبتَ عن عيني حقيقاً أنت في

يا من إذا ابدى محاسن وجهه   للناس انساهم جمال اليُوسُفي

إرفِقْ بمضنىً لو رايت نحوله   وذبوله بتولّه وتلّهف[١٠٢]

بدا الشاعر قصيدته بالشكوى من صاحبه يرجو منه العطف والحنان، ذاكراً جماله، وحبه وتعلقه به، ونحوله بسبب هجره وبعده عنه، ويستمر على مديحه ذاكراً أوصافه طالباً منه السماح بقوله:

ولكل من حب الطريق وأهلهوغدا لسير الغوث حقاً مقتفِ

أعني أبا صالح ومحيي الدين عبـ   د القادر الجيليّ نعم المسعفِ

فخر الوجود وعِقْدُ تيجان الولا   مُقري الوفودِ وغيث جودٍ واكفِ

باز وما العُقبان إلاّ حزْبُه   حامي الحما بل منجد المستضعف[١٠٣]

فهو يمزج بين المعاني الصوفية التي وصف بها الشيخ مثل: الغوث – الباز – الطريقة، وغيرها من المعاني الاخرى التي يمتاز بها القادة الابطال من الشجاعة والبذل والعطاء لتتكامل الصفات في شخصية ممدوحه.

بعدها يشير إلى كرامات ممدوحه، والتي شاعت في زمانه من وصف بعض المعجزات التي اتصف بها بعض الشيوخ، يقول:

ولكم كراماتٍ له مشهـورةٍ   لم تُحص في عدٍ ووصف الموصفِ
يا ايها الغوث المعظم جُد على   صَبّ معنىً بالذنوب مُسـوِف
ما خاب من وافى حماك وإنّما   قد طاب من مغناك يا نعم الوفي
واسمح ببعض الجذب لي يا سيدا   بين البرية شمسُه لم تكْسَـفِ
وارثوا لحالِ مسلمٍ في كربةٍ   فلقـد تفتّتَ قلبـهُ بتخـوّف
وصلاةُ ربّ العالمين على الذي   سُمّي محمدُ أشرفَ ابن الاشرف(١٠٤)

فقد أشار الى أنه صاحب كراماتٍ جمةٍ لانه الغوث الذي يغيث الداعي عندما يمد اليه يده طالباً منه العون، كما أشار الى "الجذب" وهي أيضاً من سمات المتصوفة الذين يؤمنون بالكرامات، فالشاعر تجاوز الى البشر، بذلك خرج عن التصوف الصحيح التي اشرنا اليها سابقاً، فالشاعر له قصائد جميلة في التصوف والتعلق بالله وحده أولاً لكنه بعد ذلك تجاوز الحدود الى البشر وهي مبالغة مال اليها في بعض اشعاره.

الدراسة الفنية:

من خلال دراسة شعر أحمد بن عبد الرحمن تبين سهولة الفاظه ووضوح معانيه، مع تساوي معظم أشعاره على مستوى شعري متقارب، وبدا على شعره أسلوب العصر وسماته، من خلال محاكاة الأقدمين والتأثر بالصنعة، ووضع لنفسه معياراً واحداً يسير عليه في التزامه الشعر الديني بكل اتجاهاته من المديح النبوي والزهد والتصوف ومدح الاولياء والمشايخ...

والامر المهم الذي طرأ على لغة الشعر في هذه المدة، الاختلاف الحاصل بين لغة الشاعر وحديث الناس، حتى أصبحت هذه اللغة صعبة عليه. مما أوجب على الشاعر دراسته وتعلمه(١٠٥)، وهذا حتم على الشاعر صقل موهبته من خلال التعلم في المدارس ثم التوجه الى

بغداد والشام وغيرها. فاتسمت لغته بالوضوح مع خلوها من الاخطاء اللغوية وتمكنه من الشعر، وإن لم تسلم من سمة النثرية التي كانت طابع ذلك العصر(١٠٦).

وبخاصة في القصائد التي اعتمدت على سرد الاحداث وذكر المواقع والكشف عن همومه وبيان أوصاف الرسول ﴿ ﷺ ﴾ ومعجزاته، منها قوله: [الرمل]

سيُد الخلق حبيبُ الحقّ من أنزل القرآن فيه قصصا

نورُ دين الله بل بهجتـهُ طائع لله ما يوما عصـا

صاحبُ المعراج من راقى الى حضرة القدس وفيها خصصا

كامل الأوصاف والأخلاق لـم تلْقَه إلاّ مُنيبا مخلصا(١٠٧)

فالأبيات تتحدث عن سرد واضح لسيرة الرسول ﴿ ﷺ ﴾ واخلاقه ومعجزاته في تسلسل تدريجي، وعلى هذه الشاكلة ورد كثير من أشعاره.

كذلك وجدنا تأثره الكبير بالقرآن الكريم، فمعظم اشعاره تدور حول الإسلام ومعانيه وشخص الرسول وصحابته، لذلك نجد بوضوح الالفاظ والمعاني القرآنية وباشكال عدة، فهو أحياناً يقتبس بعض الآيات أو الالفاظ ويضمنها أشعاره، وأحياناً يتصرف بالالفاظ، واخرى يشير الى بعض المعاني الواردة في القرآن الكريم، منها قوله في الخمرة الصوفية: [الرمل]

سمعوا الحانها من حانها لن تنالوا البر حتى تنفقوا مـا

نحروا أنفسهم من وجدهم ورموا في القلب جمراً وضراما(١٠٨)

فقد اقتبس الشطر الثاني من البيت الأول من قوله تعالى: "لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبون.." (١٠٩)

وقوله: [الكامل]

واقول يا طه عبيد قد أتى ولقد غدا مما جناه على شفا(١١٠)

ففي العجز اقتباس جزئي من قوله تعالى: "...وكنتم على شفا حفرة من النار..." (١١١)

وقوله أيضاً: [الرمل]

إن لي فيها حبيباً حبه   يجعل النيران برداً وسلاماً[١١٢]

ففي العجز اقتباس مع تغيير في قوله تعالى: "قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على ابراهيم.." [١١٣]

ومن ثم تاثر أحمد بن عبد الرحمن بمن سبقه من الشعراء الكبار، وبخاصة الذين ساروا في الاتجاه نفسه، فقد تاثر بشعر أحمد بن العربي، وابن الفارض وغيرهما، وجاء هذا التأثر في أبيات متفرقة أو معارضة بعض قصائدهم وغيرهما، منها قوله:

[البسيط]

وطالما قمت ليلي طالباً فرجاً   أقول في شدّتي يا أزمة انفرجي[١١٤]

ففي عجز البيت مجتزأ من أحد أبيات القصيدة المنفرجة لابن الفارض:

أصبحت فيك كما أمسيت مكتئباً   ولم أقل جزعاً: يا أزمة أنفرجي[١١٥]

وقوله: [البسيط]

يا عاذلي في الهوى دعني أمت كمداً   فالموت قصدي بحدّ الوجدْ إن حصلا

من مات شوقاً بمن يهواه عاش ولا   خوف عليه ولا حزن له وصلا[١١٦]

فقد أشار صاحب الروض النضر الى أنه أخذ المعنى من قول الشيخ ابن الفارض:

من لي بإتلاف روحي في هوى رشأ   حلو الشمائل بالأرواح ممتزج

من مات فيه غراماً عاش مرتقياً   ما بين أهل الهوى في أرفع الدرج[١١٧]

وقوله أيضاً: [مجزؤ الكامل]

عقل المتيم فيك حائر   أو ما تراه اليك طائر[١١٨]

فقد افاد من عروض قصيدة بهاء الدين زهير وهي:

غيري على السلوان قادر   وسواي في العشاق غادر[١١٩]

ونظم عصام الدين العمري (ت١١٨٤هـ) على القافية والمعنى فقال: [الخفيف]

نسمة الروض ضوعتها الأزاهر   وذكت أطيب العبير المجامر(١٢٠)

هذا فضلاً عن تشطير وتخميس بعض القصائد المختارة للشعراء البارزين.

بذلك نستطيع القول أن الشعر الديني في هذه المدة كان على علاقة وثيقة بالشعراء السابقين، وكان الشعراء لا يعدون ذلك منقصة في شعرهم، ففي ذلك دلالة في السير على طريق الصالحين في الزهد والمديح الديني والحب الالهي والتصوف وغير ذلك، وعليه فقد أجاد شاعرنا وأظهر قوة في إيصال فكرته سواء أكانت أشعاره متاثرة بالآخرين أم كانت من نظمه وبنات أفكاره.

واستعان شعراء هذه المدة أيضاً بالبلاغة وفنونها لاظهار براعتهم في اغراضهم الشعرية التي كانت الصنعة الشعرية من سماتها البارزة، وكان لأحمد بن عبد الرحمن نصيب من هذه الصنعة، لكنها لم تغلب على الفكرة والموضوع بل جاءت متوازنة لإظهار بعض الجوانب التي يريد البوح بها، من ذلك قوله: [الكامل]

عن وصل أحبابي تقاصر ساعدي   يا مقلتي نوحي علي وساعـدي

رقّي لحالي يا عيون وإشرحي   شوقي بهم وتحدّثي بتواجـدي

فلعل ان تأتي الصبا بهبوبهـا   وتقولُ: طبْ قُرِّبْت بعد تباعـد

وعسى الصّبا تلقي لهم ما تلتقي   من لوعتي وصبابتي ومواردي(١٢١)

فقد استخدم الجناس والطباق (ساعدي – وساعدي – قربت – تباعد) على قدر محدود لبيان حاله واظهار مشاعره من خلال المصطلحات الصوفية التي ذكرها الشاعر، وهي: الوصل – الشوق – الحال – التواجد وغيرها.

وأحياناً يستخدم هذه الفنون لإيصال ما به من هم وشوق الى الديار الحجازية وقبر الرسول ﴿ ﷺ ﴾ يقول: [البسيط]

قد حان عمري انقضاءً، ليت يخبرهم   من بعض وجدي بهم أملي لهم ألمي

لعلّ عطفاً ولطفاً من تفضلكـم   أو نظرة تأتني مِنْ بعد بعـدهم(١٢٢)

الروح راحت بدار الهجر واحزني   ما لان لي قلبهم لهفي لنيلهــم

ما شاقني ومضُ برق نحو كاظمةٍ بل ساقني نارُ قربٍ من ديارهـم

ناديت حادي السّرى لما درى ولهي كُفّيتَ كفّ الردى دانيت أرضهـم

سِرْبي قليلا فإني قد شممتُ شذا بان المصّلى وشربي من مياههـم[١٢٣]

فقد استخدم الشاعر الجناس بأنواعه مثل: عطفاً – لطفاً، الروح – راحت، شاقني – ساقني، كّفيت –كفّ، سِرْبي – شربي، بمعانيها التي تدل على الوله والشوق والفاظها الجميلة ليصل الى هدفه في ايصال لوعته وتعلقه بالرسول ﴿ ﷺ ﴾ فقد ورد الجناس في محله ولم يكن ثقيلاً أو زائداً في الأبيات.

أما الصور البيانية فهي كثيرة، وجاء أغلبها من خلال التشبيه والاستعارة والكناية، ووردت في حالات عدة، ولاسيما في حالات الغزل الصوفي واستخدام الرموز والأوصاف والتعابير الصوفية وغيرها، من ذلك قوله في مقدمة إحدى قصائده التي يمدح بها الرسول ﴿ ﷺ ﴾، واصفاً حاله: [البسيط]

أجفانه السحب والأنفاس بارقة وعقله بعقال الصد معقول[١٢٤]

فقد شبه الشاعر الدموع التي تنزل من أجفانه بالسحب، والانفاس التي تخرج من صدره بالبرق لسرعة تنفسه، فشبه أشياء محسوسة بأخرى محسوسة، وفي صورة حركية ولونية جميلة، وأوجد ذلك الترابط القوي بين حاله وحال المشبه به من السحب النازلة مع سرعة البرق دلالة على شدة تعلقه بالرسول﴿ ﷺ ﴾، والرغبة في زيارته... وقوله في مدح أحد اصحابه من المتصوفة: [الكامل]

فأنا كمرسل وردةٍ لحديقةٍ أذ فيك بحر اللفظ أضحى مورداً[١٢٥]

فهو في ذكر فضائل صاحبه، يقول أن كل هذا الوصف لا يساوي الاّ جزءاً قليلا مما يمتلكه من الصفات، فشبه مدحه بوردة، بينما هو في افضاله كالحديقة الغناء، التي تحوي آلاف الورود والاشجار والثمار، فكانت الصورة بصرية جميلة.

أما الاستعارة، فقد وردت ايضاً في صور شتى، ومعلوم أن الاستعارة تشبيه حذف أحد جانبيه، والتشبيه فيها أبلغ، من ذلك قوله في مقدمة إحدى قصائده التي يمدح بها الرسول ﴿ ﷺ ﴾ : [البسيط]

ما ناح وُرْق على أوراق أفنانِ إلاّ وزاد تباريحي وافناني

ولا سرت نسمة فوق الرياض ضحى الأ رماني زماني بين اشجاني

ولا تبدَتْ جيوشُ الليل مظلمةً إلاّ جفا النوم أجفاني وأجفاني

ولا عَلتْ غرة الإصباح مشرقةً الاّ غلت غلّتي من مدمَعي القاني(١٢٦)

ففي البيت الثالث شبه الشاعر مجيء الليل وظلمته بجيش جرار يغطي كلّ شيء، في صورة لونية وبصرية متحركة جميلة، فذكر المشبه وهو الليل المظلم، وحذف المشبه به ثم ذكر بعض صفاته وهو الجيش الجرار الذي يغطي كل شيء في زحفه، فكانت الاستعارة مكنية.

وقوله أيضاً في ذكرى مولد الرسول ﴿ ﷺ ﴾: [الكامل]

والكون يرقص فرحةً بقدومه والشرك ألبس ترحةً في ترحة(١٢٧)

شبه فرحة الكون بذكرى مولد الرسول ﴿ ﷺ ﴾ برجل يرقص فرحاً وبهجة، فحذف المشبه به وابقى صفة من صفاته، في صورة حركية، أما الشرك فقد ألبس سواداً في حزنه قرباً بزواله، فحذف المشبه به أيضاً وأبقى بعض صفاته في استعارة مكنية، واستطاع بهذه الصورة ان يوجد العلاقة بين كل حالة، حالة الفرح والكون البهي بقدوم مولد الرسول ﴿ ﷺ ﴾ ومن ثم حالة حزن المشركين وسواد وجوههم وبؤسهم بهذا الحدث التي يدل على مصيرهم المحتوم.

وقوله: [البسيط]

أما الفؤاد فمن وجدي به لهبُ والجسم مضنى مع الاحشاء والمهج(١٢٨)

فقد شبه الشوق الموجود في قلبه باللهب، وحذف المشبه وابقى المشبه به، وكأنه اراد أن يقول: أما الفؤاد فمن وجدي به شوق كاللهبّ، فحذف المشبه ليزداد المعنى قوة وجمالاً، ليشغل عقل القارئ ويبحث عنه، فكانت الاستعارة تصريحية وفي صورة معنوية.

وللكناية دورها في إبراز الصور الشعرية الجميلة التي اختارها الشاعر، وهي تعني: "أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء الى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيومئ به إليه، ويجعله دليلاً عليه"(١٢٩)، بذلك تزداد الصورة جمالاً من خلال تحريك القارئ للبحث عن المعنى من خلال اللمحة والاشارة والرمز والتعريف والمبالغة... (١٣٠)

ومن كنايات الشاعر قوله في مدح الرسول ﴿ ﷺ ﴾ وذكر القرآن الكريم: [البسيط]

فلي حبيبُ هواهُ مذهبي، وأرى   حُبّيه بين الورى من أوضحِ النهج(١٣١)

فقوله "لي حبيب" كناية عن موصوف، فذكر الصفة (الحبيب) واراد الموصوف وهو الرسول ﴿ ﷺ ﴾

وقوله في وصف الديار الحجازية: [البسيط]

هي الديار التي يحمى النزيل بها   نعم الديار ونعم الحيّ والجار(١٣٢)

فالشاعر هنا بصدد مدح الرسول ﴿ ﷺ ﴾ وأشار إلى الديار الحجازية، التي يسكنها، وأراد بذلك الرسول الذي يحمي الجار النازل لديه، فأشار إلى المكان واراد صاحب المكان فالكناية هنا عن النسبة، أي نسبتها الى الرسول ﴿ ﷺ ﴾ التي ازدادت قيمتها بانتمائه اليها:

وقوله أيضا: [الكامل]

إن متّ تكفيني بثوب صبابتي   فخطابهم بالموت لي يكفيني(١٣٣)

فقد استخدم الشاعر التورية أولاً في لفظة (تكفيني) فالاولى تعني الكفن الذي يكفن به الميت، والثانية من الكفاية أي القناعة والرضى، ثم أشار الى لفظة "خطا بهم بالموت" دلالة على دفاعهم عنه عند الموت أي الرسول ﴿ ﷺ ﴾ –حسب مفهوم الصوفية– فالكناية هنا عن صفة الدفاع عنه فذكر الموصوف واراد الصفة.

بهذه الطريقة استطاع الشاعر ان يرمز الى الاشياء "وليس الرمز في الشعر الصوفي راجعاً الى الكنايات البعيدة وحدها، واطلاق اسماء من يمثل الرموز الحقيقية على مسميات لا يراد التصريح بها، كاطلاقهم الخمرة على أداة الوصل وتشوقه، واطلاقهم سعدى ولبنى على المحبوب الأعلى مثلاً..." (١٣٤).

وللموسيقى الشعرية دورها في ابراز شعر أحمد بن عبد الرحمن، فلو راجعنا ديوانه وإشعاره الموجودة في الكتب لوجدنا أنه نظم أشعاره على البحور الطويلة، لكونها تعطي الشاعر مساحة أكبر من البحور القصيرة والمجزوءة...

وكان بحر الكامل أكثر البحوث استخداماً في شعره، وهو "يصلح لأكثر الموضوعات"(١٣٥)، وفيه "لون خاص من الموسيقى يجعله –إن أريد به الجد– فخماً جليلاً مع عنصر ترنمي ظاهر، ويجعله إن اريد به الى الغزل وما بمجراه من أبواب اللين والرقة، حلوا مع صلصلة كصلصلة الأجراس، ونوع من الأبهة يمنعه أن يكون نزقاً أو خفيفاً شهوانياً"(١٣٦)، وقد كثر استخدامه في موضوعات المدح النبوي والزهد والتصوف عند شاعرنا، منها قوله:

خلّ التشوق في النوى يبريني   فهوى الحبيب هو الذي يُبريني
ودع الصبابة للغرام تبيعني   بخساً فإن أحبتني تشريني(١٣٧)

ومن ثم جاء الرمل في المرتبة الثانية، وهو يكثر في موضوعات الغزل الصوفي والخمرة الصوفية، وهو بحر غنائي مشهور"(١٣٨)، وقد "وجد عناية في الشعر الحديث حتى أصبح الان يحتل المرتبة الثانية بين الأوزان الشعرية"(١٣٩)، وأزداد أهتمام الشاعر به لسرعة النطق به وتتابع تفعيلاته مثال ذلك قوله في الغزل الصوفي:

يا بريقَ الفجر قد حان اللّقا   حنّ محبوبي تبدّى مُشْرقا
وزمان الصدّ ولى معرضا   وأوان الوصل وافا مطرقا(١٤٠)

وجاء البسيط في المرتبة الثالثة وهو (بحر غزير الموسيقى يجود في كل ماله صلة بالشجن) (١٤١) وهو "شديد الصلاحية للتعبير عن معاني العنف والتعبير عن معاني الرقة"(١٤٢)،

لذلك كثر استخدامه في مدح الرسول ﴿ ﷺ ﴾ وموضوعات التصوف، منها قوله في مدح الرسول ﴿ ﷺ ﴾:

القلبُ مني الى أرض الحجاز صبا والبعد قد زادني من شوقها وصَبا[١٤٣]

وهناك قصائد ومقطعات قليلة وردت على بحر الطويل والخفيف والمديح والسريع.. واهتم أحمد بن عبد الرحمن بالقوافي المؤثرة في النفوس، لكونها تثير في القارئ المشاعر في حب الرسول ﴿ ﷺ ﴾ والحنين الى الديار الحجازية والزهد والخمرة الصوفية، ولو عدنا الى ديوان الشاعر لوجدنا أن قافية الميم هي أكثر القوافي استخداماً في شعره، "وحلاوة قوافي الشاعر هي التي تمنح القصيدة كلها جمالاً خاصاً"[١٤٤]، ومعلوم لدينا أن الميم من القوافي الأساسية في قصائد المديح النبوي، وهو من الحروف المجهورة ويمتاز بنبرة موسيقية، كقوله:

قف بالديار وحيّ سيد الحرمِ وآقري السلام لأهل الجود والكرم[١٤٥]

وجاءت قوافي الراء في المرتبة الثانية ويعود ذلك الى جرسه الذي يتوسط بين الشدة والرخاوة، فضلاً عن تكرار اللسان في طرف الحنك عند النطق به[١٤٦]، من ذلك قوله:

قلبي تقلّب من جواه مهاجراً شوقاً لمن أمسى لوصلي هاجراً[١٤٧]

وفي المرحلة الثالثة كانت قافية اللام، وهو يمتاز بوضوحه الصوتي، وسهولة مخرجه وكثرة اصوله في الكلام من غير اسراف[١٤٨]، مثال ذلك قوله:

من فرط وجدي قد بقيت ذليلا افلا تكن لي في هواك دليلا[١٤٩]

وتلتها قافية النون، وهي من القوافي المحببة في الشعر العربي، منها قوله:

ما ناح ورق على أوراق افنان الاّ وزاد تباريحي وافناني[١٥٠]

ثم تلتها قوافي الباء والهاء والدال والياء، وجميعها من القوافي الذلل[١٥١]، التي كثر استخدامها في الشعر العربي، ثم أتت القوافي الآخرى بنسب قليلة جداً.

أما الايقاع الداخلي فله دوره المّميز في إبراز الموسيقى الشعرية للقصيدة، وبخاصة أن للشاعر اهتماماً خاصاً بالموسيقى، وسبق له أن ترجم كتاباً في الموسيقى[١٥٢]، وبذلك كانت

قصائده حافلة بجرسها الموسيقي وحسن الصياغة، الامر الذي يجلب انتباه القاري، مثال ذلك قوله في احدى موشحاته: [مجزوء الرمل]

يا مغنّي الحان غَنّي عشق ذا المحبوب فنيّ
فأدر ذكر حبيبي ودع اللاحي يلمني
لا تقل ليلى وسلمى ففوادي صار سلما
فانشد الوجد وسل ما ذقتَ من كربٍ وحزنِ
إنّ محبوبي قصدي وله أشرح وجدي
فعسى يبدل بعدي باقتراب ثم يدني
من يكن يهواه حقاً فليمتْ شوقا وعشقا
فإذا مات ترقى رتبة فوق التمني(١٥٣)

أبدع الشاعر في نصه الذي اجتمع فيه صفات موسيقية داخلية وخارجية عدة، فقد بدأ المطلع بـ(غّنى–فنّي) في توافق صوتي جميل، والنون حرف انفجاري يحدث صوتاً عند تكراره مرات عدة، وكان لتكرار (سلمى) ثلاث مرات، دلالة على معانٍ مغايرة في كل مرة، الأمر الذي جلب الانتباه لمعرفة مدلولاتها، وفي آخر الابيات كان لوجود (لاحقا – شوقاً – عشقا – ترقى) بدلالتها المعنوية ونبرات الصوت المميزة في التوافق الصوتي الجميل، ما أعطا صورة جميلة لهذه الموشحة في الخمرة الصوفية ونظمها على مجزوء الرمل، البحر الذي اشتهر عند الشعراء المتصوفة.

وقوله أيضاً في مدح الرسول ﴿ ﷺ ﴾: [بسيط]

ما ناح ورقُ على أوراق أفنانِ إلاّ وزاد تباريحي وأفناني
ولا سرتْ نسمة فوق الرياض ضحى إلاّ رماني زماني بين أشجاني
ولا تبدتْ جيوش الليل مظلمة إلاّ جفا النوم أجفاني وأجفاني
ولا عَلت غرة الإصباح مشرقة إلاّ غلتْ غلتي من مدمعي القاني(١٥٤)

فقد أهتم الشاعر بمقدمة قصيدته، وأحسن صياغتها في صدر وعجز محصورين بين ما – والاّ، أو ولا – والاّ، المتكررة من الجناس التام والناقص وهي "ورق – أوراق – أفنان – أفناني" مما أعطى النص صورة موسيقية يشتاق لها القارئ، وفي البيت الثاني مجانسة بين "رماني – زماني – أشجاني" وفي الثالث للألفاظ (جفا – أجفاني – وأجفاني)، وفي الرابع (علت – غلت – غلتي) كلها ألفاظ شاركت في احداث جرس موسيقي داخل القصيدة واشتركت مع القافية لابراز هذه الصورة الجميلة لاظهار المعنى العام للقصيدة بهذه الأنغام الشجية

الخاتمة

نستطيع القول أننا قدمنا فكرة واضحة عن شاعر موصلي ما يزال ديوانه مخطوطاً منذ فترة طويلة من الزمن.

واستطاع شاعرنا أن ينقل لنا ما حوله من الآراء والأفكار السائدة في عصره من خلال شعره الذي امتاز بالصدق، فلم يمدح والياً أو متنفذاً، وظهر على شعره طابع العصر من الصنعة والاكثار من الفنون البديعية وباستخدام جيد ورصين. كما ظهر تعلق الشاعر بالاعلام البارزين من الشعراء، ولاسيما الزهاد والصوفية، وقمنا بدراسة شعره حسب الظواهر الشائعة في عصره، لكونه لا يحتمل أكثر من ذلك.

واستطعنا من خلال شعره بيان المسار الصحيح لشعره الديني، كذلك ما خرج فيه عن المألوف في التوسل والاستغاثة بالرسل والاولياء...

وأخيراً لا بد من الاهتمام بهذه النماذج الكثيرة في تراثنا وان لا تقتصر على عصور محددة، ففي كل العصور ما هو جيد وما هو دون ذلك.

المصادر والمراجع والاحالات

١– هدية العارفين، اسماء المؤلفين وآثار المصنفين، اسماعيل باشا البغدادي، استانبول، ١٩٥١، ١/١٧١؛ ومعجم المؤلفين، تراجم مصنفي الكتب العربية، عمر رضا كحالة، بيروت، د.ت، ١/٢٧٠.

٢– شمامة العنبر والزهر المعنبر، محمد بن مصطفى الغلامي (ت١١٨٦هـ)، تحقيق: د. سليم النعيمي، بغداد، ١٩٧٧، ص.٢٩٨

٣– الروض النضر في ترجمة أدباء العصر، عصام الدين عثمان بن علي العمري (ت١١٣٤هـ)، تحقيق: د.سليم النعيمي، بغداد، ١٩٧٥، ٢/٣٣٠.

٤- منهل الأولياء ومشرب الاصفياء من سادات الموصل الحدباء، محمد أمين بن خير الله الخطيب العمري (ت١٢٠٣هـ)، تحقيق ونشر: سعيد الديوه جي، الموصل، ١٩٦٨، ٣٠٢/١.

٥- م.ن: ٣٠٢/١

٦- شمامة العنبر: ٢٩٩.

٧ – م.ن: ٢٩٩.

٨- ينظر: الموصل في العهد العثماني، فترة الحكم المحلي (١١٣٩-١٢٤٩هـ)، د.عماد عبد السلام رؤوف، النجف، ١٩٧٥، ص٣٦٥.

٩- شمامة العنبر: ٢٩٩.

١٠- الروض النضر: ٣٣١/٢.

١١- م.ن: ٣٣١/٢.

١٢- منهل الاولياء: ٣٠٢/١.

١٣- ديوان أحمد بن عبد الرحمن الموصلي الشهير بالمسلم (ت١١٧٥هـ) (مخطوط)، نسخة مكتبة الأوقاف العامة في الموصل برقم ٩/٥٧، داؤود الجلبي، ص١٤٤.

١٤- منهل الاولياء: ٣٠٢/١.

١٥- ديوان الموشحات الموصلية، جمع وتحقيق: محمد نايف الدليمي، جامعة الموصل، ١٩٧٥، ص٧٠.

١٦- هدية العارفين: ١٧١/١؛ ومعجم المؤلفين: ٢٧٠/١.

١٧ – فهرس مخطوطات مكتبة الأوقاف العامة في الموصل ٢٥٦/٦، مخطوط برقم ٩/٥٧، داؤد الجلبي، وينظر: معجم المؤلفين: ٢٧٠/١.

١٨- فهرس مخطوطات مكتبة الاوقاف العامة في الموصل ٢٦٠/٦، مخطوط برقم ٩/٦١، داؤد الجلبي.

١٩– هدية العارفين:١/. ١٧١

٢٠– م.ن:. ١٧١

٢١– شمامة العنبر:.٢٩٨

٢٢–الروض النضر:٢/. ٣٣١

٢٣– منهل الاولياء:١/. ٣٠٢

٢٤– مقدمة ديوانه (مخطوط):ص. ٤

٢٥– ينظر: البديعيات في الادب العربي، علي ابو زيد، بيروت، ط١، ١٩٨٣، ص.١٨

٢٦– ينظر: الادب العربي في العصر الوسيط، د.ناظم رشيد، جامعة الموصل، ١٩٩٢، ص.٨٣

٢٧– ينظر: ديوان البوصيري، بيروت، ط١، ٢٠٠٧، ص.١٠

٢٨– عَشْقَتي: العَشَقَةُ: شجرُة اللبلاب، وسكّنت الشين ضرورة (الضرائر وما يسوغ للشاعر دون الناثر، محمود شكري الالوسي، بغداد، ١٩٩٢، ص.١٧١

٢٩– ديوانه (مخطوط): .٦

٣٠– ينظر: فن التقطيع الشعري والقافية، د.صفاء خلوصي، بغداد، ط٦، ١٩٨٧، ص٩٥.

٣١– سراقب: من المدن السورية القريبة من حلب، لم تذكر في المصادر القديمة.

معرة: مدينة مشهورة تقع بين حلب وحمص. (معجم البلدان، ياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ)، بغداد، د.ت، ١٥٦/٥).

٣٢– ديوانه (مخطوط): .٦

٣٣– الهَديّةُ: لعله اراد بها (الهَدَةُ): وهو موضع بين مكة والطائف. (معجم البلدان: ٣٩٥/٥).

الفحلتان: موضع في جبل أحد(معجم البلدان: ٢٣٧/٤).

٣٤– ديوانه (مخطوط): .٧

٣٥- العقيق الاولى: الدموع التي شبهها بالعقيق، أي اللؤلؤ، والثانية: موضع بناحية المدينة فيه نخل وماء (معجم البلدان:٤/١٣٩).

٣٦- صرف أحمد ضرورة (الضرائر وما يسوغ للشاعر دون الناثر: ١٣٣).

٣٧- ديوانه (مخطوط):.٨

٣٨- قُباء: قرية على بعد ميلين من المدينة، على يسار القاصد الى مكة، وفيه مسجد قباء(معجم البلدان:٤/٣٠٢)

٣٩-الجديدة: لعلها قريبة من قباء.

الصفراء: وادي الصفراء، قريب من المدينة، سلكه الرسول (ص) أكثر من مرة. (معجم البلدان:٣/٤١٢).

٤٠- الادب في التراث الصوفي، د.محمد عبد المنعم خفاجي، مصر، ١٩٧٧، ص.١٧٩

٤١- ديوان (مخطوط):.١٠

٤٢- م.ن:.١٠

٤٣- ينظر: في أدب العصور المتأخرة، د.ناظم رشيد، الموصل، ١٩٨٥، ص٢٧.

٤٤- سفح اللوى: من أودية بني سليم، ذكره الشعراء كثيرا. (معجم البلدان:٥/٢٣).

٤٥- سلع: جبل أو موضع قرب المدينة. (معجم البلدان:٣/٢٣٦).

٤٦- ديوانه (مخطوط): .٢٠

٤٧- م.ن:.٦٥

٤٨- ينظر: الخصائص الكبرى، جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ)، تحقيق: د. محمد خليل هراس، مصر، د.ت، ٢/.٣٠٤

٤٩- ينظر: السيرة النبوية، ابو محمد عبد الملك بن هشام (ت٦٢٣هـ)، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٤، ٢/.٤٢٦

٥٠- القلم، الاية.٤

٥١- ديوانه (مخطوط): .٦٥

٥٢- الاخشبان: جبلان يضافان تارة الى مكة وتارة الى منى، وهما واحد (معجم البلدان:١/١٢٢).

٥٣- ديوانه (مخطوط): ١٨٣؛ والروض النضر:٢/٣٣٧.

٥٤- ينظر: شمامة العنبر: ٢٩٨؛ والروض النضر:٢/.٣٣٢

٥٥- النَّعَم: الإبل، والنُّعُم: طيب العيش واتساعه.

٥٦- ديوانه (مخطوط): .٩٠

٥٧- الشعر الصوفي حتى افول مدرسة بغداد وظهور الغزالي، عدنان حسين العوادي، بغداد، ١٩٧٩، ص.١٥٩

٥٨- لسان العرب، ابن منظور (ت٧١١هـ)، بيروت، ط٦، ١٩٩٧، مادة زهد.

٥٩- ينظر: الموصل في العهد العثماني، فترة الحكم المحلي، ٨/.٤٠

٦٠- ديوانه (مخطوط): .١٦٢

٦١- م.ن: .١٦٢

٦٢- سكن المتحرك من (أمَرَك) ضرورة (الضرائر وما يسوغ للشاعر: ١٧١).

٦٣- ديوانه (مخطوط): .٨٢

٦٤- م.ن: .٢٧٠

٦٥ – التخميس: هو "أن ينظم الشاعر ثلاثة شطور على روي صدر البيت فيعود البيت مؤلفاً من خمسة شطور بعد أن كان مؤلفاً من شطرين" (الحالي والعاطل- تتمة لملحق أمل الامل، د. عبد الرزاق محي الدين ، النجف ١٩٧١، ص١٧٠).

٦٦- ديوانه (مخطوط): ٢٣٥، ولم أجد الابيات المخمسة في ديوان الامام علي ابن ابي طالب كرم الله وجهه.

٦٧- ينظر: الشعر الصوفي: .١٥٠

٦٨- ينظر: التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق، د. زكي مبارك، مصر، ط٢، ١٩٥٤، ٨٤./٢

٦٩- الشعر الصوفي: .٥٣

٧٠ – التصوف الاسلامي الخالص، السيد محمود أبو الفيض المنوفي، مصر، ١٩٦٩، ص.٧٢

٧١ – ديوانه (مخطوط): .٢٦٥

٧٢- وصل همزة القطع في (أنت) ضرورة (الضرائر وما يسوغ للشاعر، .١٣٧

٧٣- ديوانه (مخطوط): .٦٨

٧٤- العندم: الصبغ الأحمر.

٧٥- ديوانه (مخطوط): .١٨٥

٧٦- م.ن: .١٨٥

٧٧- القول الجلي في حكم التوسل بالنبي والولي، محمد بن أحمد بن حمد بن عبد السلام، تعليق: الشيخ أحمد الانصاري، الرياض، ط٢، ٢٠٠٢، ص.١٨

٧٨- مجموع الفتاوى الكبرى، أبو العباس تقي الدين أحمد بن تيمية (ت٧٢٨هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، ط١، ٢٠٠٠، ص.٤٣٧

٧٩- ديوانه (مخطوط): .٧٦

٨٠- ينظر: الادب العربي في العصر الوسيط:.١٣١

٨١- التشطير: هو "أخذ الشاعر بيتاً لغيره، فيجعل لصدره عجزاً ولعجزه صدراً تناسب اللفظ والمعنى بين الاصل والفرع"، (المعجم الادبي، جبور عبد النور، بيروت، ط١، د.ت، ٦٨).

٨٢- ديوانه (مخطوط): ١٦٣، والابيات المشطرة في ديوان ابن الفارض، تحقيق: د. درويش الجندي، بيروت، ط١، ٢٠٠٨، ص.١٧٤

٨٣- الخيف: خيف بني كنانة بمنى، نزله الرسول (ص). (معجم البلدان: ٢/٤١٢).

٨٤- ديوانه (مخطوط): ١٦٥، والابيات المشطرة في ديوان ابن الفارض: .١٧٥

٨٥- ينظر: ديوانه (مخطوط): ٧١، ٩٠، ٩٦، .٢٥٧

٨٦- التيار الإسلامي في الشعر الموصلي، ابان فترة الحكم المحلي، ١١٣٩-١٢٤٩هـ، رسالة ماجستير، مقداد خليل الخاتوني، كلية الآداب، جامعة الموصل، ٢٠٠٦، ص.١٤٤

٨٧- ديوانه (مخطوط): ١٤٩

٨٨- التيار الإسلامي في الشعر الموصلي،رسالة ماجستير، .١٤٥

٨٩- ديوانه (مخطوط): .١٥٠

٩٠- التصوف الإسلامي الخالص: .١٤٧

٩١- ديوانه (مخطوط): ٢٢، ٢٣، ٢٨، ٣٤، ٥٢، ٨٠،....

٩٢- م.ن: .٦٥

٩٣- م.ن: .٦٥

٩٤- موسوعة الكسنزان فيما أصطلح عليه أهل التصوف والعرفان، محمد الكسنزاني الحسني، بيروت، ط١، ٢٠٠٥، ٧/.٣٦١

٩٥- ينظر ديوانه (مخطوط): ٥٨، ٦٤، ١٠٣، ١٣٠...

٩٦- ينظر: الشعر في الموصل في القرن الثاني عشر للهجرة، رسالة ماجستير، شريف بشير أحمد، كلية الاداب، جامعة الموصل، ١٩٨٩، ص.٨٠

٩٧- أحمد الرفاعي: تنظر ترجمته في: الطبقات الكبرى المسماة، لواقح الانوار في طبقات الاخبار، عبد الوهاب الشعراني، مصر، ١٣١٥هـ، ١/١٢٠، والاعلام، خير الدين الزركلي، بيروت، ط٤، ١٩٧٩، ١/١٦٩.

٩٨- التيار الاسلامي في الموصل، رسالة ماجستير، ١٣٤.

٩٩- ديوانه (مخطوط): ١٧.

١٠٠- فتح المجيد في شرح كتاب التوحيد، عبد الرحمن حسن ال الشيخ، الرياض، ط١، ١٤١٣ه،ص١٣٨.

١٠١- عبد القادر الكيلاني، تنظر ترجمته في: الطبقات الكبرى: ١/١٠٨؛ والاعلام: ٤/١٧٢.

١٠٢- ديوانه (مخطوط): ٧٧.

١٠٣- م.ن.: ٧٩.

١٠٤- م.ن: ١٨٠.

١٠٥- ينظر: مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني، بكري شيخ أمين، بيروت، ط٣، د.ت، ص٢١٣.

١٠٦- ينظر: الادب العربي في العصر الوسيط: ١٢٦.

١٠٧- ديوانه (مخطوط): ٦٥.

١٠٨- م.ن.: ١٠٤.

١٠٩- آل عمران، الآية: ٩٢.

١١٠- ديوانه (مخطوط): ٧٦.

١١١- آل عمران، الآية ١٠٣.

١١٢- ديوانه (مخطوط): ١١٠.

١١٣– الانبياء، الآية .٦٩

١١٤– ديوانه (مخطوط)٢٣، والروض النضر:٢/٣٣٣

١١٥– ديوان ابن الفارض:.١٩٨

١١٦– الروض النضر:٢/٣٤٦، ولم اجدها في ديوانه.

١١٧– الروض النضر:٢/٣٤٦، والبيتان في: ديوان ابن الفارض: .١٩٩

١١٨– الروض النضر:٢/٣٤٠، ولم اجدها في ديوانه.

١١٩– ديوان بهاء الدين زهير، بيروت ١٩٦٤،ص١٥٦

١٢٠– الروض النضر: ٢/.٣٤١

١٢١– ديوانه (مخطوط): .٣٢

١٢٢– جزم (تأتيني) من غير جازم ضرورة (الضرائر وما يسوغ الشاعر).١٧٥

١٢٣– ديوانه (مخطوط): .٩١

١٢٤– م.ن: .١٧٨

١٢٥– م.ن:.٤١

١٢٦– م.ن:.١٩١

١٢٧– م.ن: .٢١٢

١٢٨–م.ن:.٢٢

١٢٩– دلائل الاعجاز، عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ)، تحقيق: محمد رشيد رضا، القاهرة، ١٣٧٢هـ، ص.١٠٥

١٣٠– ينظر: الصورة الفنية معياراً نقدياً، عبد الاله الصائغ، بغداد، ١٩٨٧، ص.٣٧٢

١٣١– ديوانه (مخطوط): ٢٢، والروض النضر:٢/٣٣٤

١٣٢– ديوانه (مخطوط): .٢٠٨

١٣٣– ديوانه (مخطوط): ٢٤٦، وشمامة العنبر:٣٠١.

١٣٤– الادب في التراث الصوفي:.١٧٩

١٣٥– المرشد الى فهم أشعار العرب وصناعتها، عبد الله الطيب المجذوب، مصر، ط١، ١٩٦٤، ١/.٤٦

١٣٦– م.ن: ١/.٤٦

١٣٧– ديوانه (مخطوط): ٢٤٥.

١٣٨– الادب في التراث الصوفي: .٢٢٤

١٣٩– موسيقى الشعر، د.ابراهيم أنيس، مصر، ط٥، ١٩٧٨، ص.٩١

١٤٠– ديوانه (مخطوط): ١٧٤.

١٤١– دراسات في النص الشعري، د. عبدة بدوي، الكويت، ط١، ١٩٨٧، ص٤٩.

١٤٢– المرشد الى فهم أشعار العرب: ١/.٢٢٣

١٤٣– ديوانه (مخطوط): ١١.

١٤٤– فن التقطيع الشعري والقافية: .٢٢٤

١٤٥– ديوانه (مخطوط): ١٠٨.

١٤٦– ينظر: الاصوات اللغوية، د. ابراهيم أنيس، القاهرة، ط٣، ١٩٦١، ص.٥٥

١٤٧– ديوانه (مخطوط): ٤٤.

١٤٨–ينظر: المرشد الى فهم أشعار العرب:١/.١٣٤

١٤٩– ديوانه (مخطوط): ١٨٥.

١٥٠– ديوانه (مخطوط): ١٩١.

١٥١– ينظر: المرشد الى فهم أشعار العرب:١/.٤٦

١٥٢– ينظر: معجم المؤلفين: ١/.٢٧٠

١٥٣– ديوانه (مخطوط): ١٢٨، وديوان الموشحات الموصلية:٧٢.

١٥٤– ديوانه (مخطوط): ١٩١.

Ahmad Bin Abdulrahman AL-Mausilly, well – Known as AL-Mussalim. "His life and poetry"

Dr. Ahmed Hussain Muhammad AL-Sadani
College of Education for Girls
University of Mosul

Abstract

This research studies the poet: Ahmad Bin Abdurahman AL-Mausilly who makes all of his poems for the sake of religion. He wrote in the prophetic praise, asceticism and Sufism according to the known boarder of Islamic religion. He also, praised older lies and friends of God from the members of Sufi communities. He tends to meditation and calling for help, so he reflects his era reality and its circumstances. His poetry was easy, nice in its construction. It was free of language and grammatical faults. He organized his poetry with a long and easy. So, he deserved our investigation to his manuscript of collection of poems.